منهج القرآن الكريم للتأثير في عقائد المنافقين

دراسة موضوعية

د. مديحة بنت إبراهيم السدحان*

بسم الله الرحمن الرحيم

سلم البحث في ٢٠١٢/٧/٣٠م اعتمد للنشر في ٢٠١٢/٨/٢٩م

ملخص البحث:

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على محمد، وعلى آله وصحبه وسلم تسليمًا كثيرًا. وبعد: فإن مما اقتضته سنّة الله وحكمته وجود المنافقين في المجتمعات المسلمة، و قد فضحهم الله سبحانه في كتابه، وبين للمؤمنين كيفية معاملتهم على مستوى القادة، وعلى مستوى الأفراد والمقصود من ذلك مصالح كثيرة من أهمها: معرفة كيفية التأثير فيهم، وإن من الحكمة التعرّف على الطريقة التي يُعاملون بها لأن المؤمن يحب الخير للناس جميعا، ويسعى سعيا حثيثا لإصلاحهم، ولا ييأس من رحمة الله وفضله، ويسأل الله أن يكون سببا في هدايتهم، فإن مصلحة الإصلاح أعظم من مصلحة القتل، وقد استقرأت أساليب التأثير في عقائد المنافقين، في هذا البحث الذي عنوانه: (**منهج القرآن الكريم للتأثير في عقائد المنافقين**)،ولا بد من تعلم ذلك ومعرفته حتى لا يرجع الأمر إلى أهواء الناس، واجتهاداتهم التي لا تعتمد على الشرع، ولم أجد فيما اطلعت عليه من الكتابات والمؤلفات عن المنافقين شيئا يتحدث عن التأثير فيهم ومحاولة إصلاحهم، ولذا كان الحديث عن هذا الموضوع أمرا في غاية الأهمية

Abstract:

Praise be to Allah, and peace and blessings on Muhammad, his family and him much recognition. And after: the making required by the law of God, wisdom and presence of hypocrites in the Muslim communities, and have shamed God, in his book, and among the believers how to treat them at the leadership level, and at the level of individuals and the meaning of the interests of many of the most important: how to influence them, and that is

---

* أستاذ مساعد بقسم الدراسات الإسلامية كلية الآداب، جامعة الأميرة نورة بنت عبد الرحمن بالرياض .

wise to identify the way they treat because the believer loves the good of all people, and seeks actively seeking a reformation, not despair of God's mercy and grace, and ask God to be a reason to guide them, the benefit of reform is greater than the interest of murder, has Astqrot methods to influence the beliefs of the hypocrites, in this Find the address of: (approach the Holy Quran to influence the beliefs of the hypocrites), and must learn it and know not even due Alomrely whims of the people, and reasoning that does not depend on al-Shara, I did not find as seen by the writings and writings about the hypocrites something talking about influence them and try to reformation, and so it was talk about this issue is extremely important

المقدمة:

إن الحمد لله نحمده، ونستعينه، ونستغفره، ونتوب إليه، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا، ومن سيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأن محمدًا عبده ورسوله ﷺ وعلى آله وصحبه وسلم تسليمًا كثيرًا.

أما بعد: فإن مما اقتضته سنّة الله وحكمته وجود المنافقين في المجتمعات المسلمة، بل إنّ ظهورهم في المجتمع المسلم دليل على قوّته، ولذا لم يكن في مكّة قبل فتحها منافقون، إذ لا حاجة إلى النفاق في مجتمع مشرك يستخفي فيه المؤمن أحيانا، والمنافقون قد فضحهم الله سبحانه في كتابه، وبين صفاتهم السلوكية ونعتهم، فلم يترك لهم ظاهرا ولا باطنا إلا بينه ليتضح أمرهم، وبين للمؤمنين كيفية معاملتهم على مستوى القادة، وعلى مستوى الأفراد، والمقصود من ذلك مصالح كثيرة من أهمها: معرفة كيفية التأثير في هذه الفئة الخفية الماكرة الخطرة على المجتمع المسلم،وإن من الحكمة التعرّف على الطريقة التي يُعاملون بها لأن النهج السديد في إصلاح الناس وتقويم سلوكهم أن يبدأ المصلحون بإصلاح النفوس وتزكيتها حتى نؤثر في عقائدهم فنهدي من كتب الله له الهداية، ونحذر ممن كتب عليه الشقاوة.فالمؤمن يحب الخير للناس جميعا، ويسعى سعيا حثيثا لإصلاحهم، ولا ييأس من رحمة الله وفضله، ويسأل الله أن يكون سببا في هدايتهم، فإن مصلحة الإصلاح أعظم من مصلحة القتل، وقد استقرأت أساليب التأثير في عقائد المنافقين، في هذا

البحث الذي عنوانه: (**منهج القرآن الكريم للتأثير في عقائد المنافقين**)، وهي دراسة موضوعية اقتصر البحث فيها على ما ورد في كتاب الله لطول الموضوع، وقد بين الله سبحانه وتعالى لرسوله ﷺ كيفية التعامل الذي يؤثر في عقائدهم، فلا بد من تعلمه ومعرفته حتى لا يرجع الأمر إلى أهواء الناس، وعواطفهم، وشهواتهم، واجتهاداتهم التي لا تعتمد على الشرع، ولم أجد فيما اطلعت عليه من الكتابات والمؤلفات عن المنافقين شيئا يتحدث عن التأثير فيهم ومحاولة إصلاحهم، ولذا كان الحديث عن هذا الموضوع أمرا في غاية الأهمية .

خطّة البحث:

وقد قسّمت البحث بعد هذه المقدمة إلى: تمهيد، وأربعة عشر مبحثا، وخاتمة.

أما التمهيد ففيه: تعريف النفاق وأقسامه.

المبحث الأول: جهادهم، والإغلاظ عليهم .

المبحث الثاني: ترك الصلاة عليهم والقيام على قبورهم .

المبحث الثالث: منعهم من الخروج للقتال مع المؤمنين

المبحث الرابع: الحث على اتخاذ موقف واضح منهم .

المبحث الخامس: النهي عن موالاتهم .

المبحث السادس: عدم قبول اعتذارهم .

المبحث السابع: قبول ظواهرهم، وعدم التصريح بأسمائهم .

المبحث الثامن: الإعراض عنهم، وموعظتهم، والقول البليغ لهم.

المبحث التاسع: عدم طاعتهم، وترك أذاهم.

المبحث العاشر: الحذر منهم.

المبحث الحادي عشر: عدم الجلوس معهم .

المبحث الثاني عشر: عدم الرضا عنهم .

المبحث الثالث عشر: التحذير من السماع لهم.

المبحث الرابع عشر: النهي عن الدفاع عنهم.

ثم الخاتمة، وذكرت فيها أهمّ النتائج التي توصلت إليها.

هذا وأسأل الله عزّ وجلّ التوفيق والسداد، وأن يجعل هذا البحث خالصا لوجهه الكريم، وأن ينفع به الإسلام والمسلمين .

التمهيد:

تعريف النفاق وأقسامه

١- تعريف النفاق:

قال الزبيدي في تاج العروس(١): « النِّفاق ككِتاب: فِعْلُ المُنافِق، وهو الدّخولِ في الإسلام من وجهٍ، والخُروج عنه من آخر .. وهو اسمٌ شرعي لم تعْرِفْهُ العربُ بالمَعْنى المَخْصوصِ به - وهوَ الذي يستُر كُفرَه ويُظْهِرُ إيمانَه ـ وإن كان أصلُه في اللّغة معْروفاً ».

وقد اختلف في أصله على قولين، فقيل: إنه مأخوذ من النفق، لأن المنافق يستر كفره، فهو كمن يدخل النفق يستتر فيه، قال ابن منظور في لسان العرب(٢): « سمي المنافقُ مُنفقاً للنَّفَق وهو السَّرَب في الأرض، وقيل: إنّما سمي مُنافقاً لأنه نافَقَ كاليربوع » (٣)، واليربوع يخرق الأرض حتى إذا كاد أن يبلغ ظاهر الأرض ترك قشرة رقيقة حتى لا يعرف مكان هذا المخرج، فإذا رابه ريب دفع تلك القشرة برأسه فخرج، والمنافق يكتم خلاف ما يظهر، فكأن الإيمان يخرج منه، أو يخرج هو من الإيمان في خفاء. وجحر اليربوع ظاهره تراب كالأرض، وهو في الحقيقة جفرةُ. وكذلك المنافق ظاهره إيمان وباطنه كفر(٤).

٢- أقسام النفاق:

يقسّم العلماءُ النفاقَ إلى قسمين:

القسم الأول: النفاق الاعتقادي:

وهو النفاق الأكبر، وهو إضمار الكفر وإظهار الإسلام، وهو المذكور في القرآن وصاحبه في الدرك الأسفل من النار، ومن أبرز مظاهره تكذيب الرسول ﷺ أو بعض ما جاء به. والمسرّة بانخفاض دين الإسلام، والفرح بما يصيب المؤمنين

من المصائب، والتعاون مع الأعداء ضد المسلمين.

القسم الثاني: النفاق العملي:

وهو النفاق الأصغر، وقد جاء ذكره في الحديث الشريف ومظاهره خمسة، قال ﷺ: (آية المنافق ثلاث: إذا حدث كذب، وإذا وعد أخلف، وإذا اؤتمن خان)، وفي رواية: (وإذا خاصم فجر، وإذا عاهد غدر)(٥). وحقيقته الاتصاف بصفات المنافقين، مع بقاء الإيمان في القلب، وهو لا يُخرج من الملة، لكنه وسيلة إلى ذلك، وصاحبه فيه إيمان ونفاق.

والحديث في هذا البحث عن النفاق الاعتقاديّ لأنه المذكور في القرآن، وهو الأخطر، وقد فضح الله سبحانه أهله في مواضع من كتابه، ليكون المؤمنون منهم على حذر، وأرشدهم إلى معاملتهم بالحكمة التي تهدي من أراد الله له الهداية، والقوة التي تردع من طبع الله على قلبه بكفره.

المبحث الأوّل

جهادهم والإغلاظ عليهم

قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ جَاهِدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ﴾ [التوبة: ٧٣] وردت هذه الآية في موضعين من القرآن، أحدهما في سورة التوبة، وهي من أواخر ما نزل من القرآن. والثاني في سورة التحريم [آية ٩]، وهي من أوائل ما نزل في المدينة حيث بدأ النفاق. وجهاد المنافقين يكون بإقامة الحجة والتعريض للمنافق بنفاقه، وهذا يطلق عليه اسم الجهاد كما في قوله ﷺ للذي سأله عن الجهاد: ألك أبوان " ؟، قال: نعم: قال: " ففيهما فجاهد ."(٦)

فجهادهم لا يكون بالسلاح،وإنما باللسان والردّ عليهم وإفحامهم ومجادلتهم بالحجّة الواضحة، ولما كان المنافق لا يظهر الإسلام، ويصبغ حديثه بصبغة الدين تلبيساً على العامّة،كان من جهاده فضحه حتى ينكشف أمره، ولفظ الجهاد في الشرع يشمل القتال بالسلاح، والجهاد باللسان. والجهاد باللسان يسميه ابن القيّم جهاد

الخاصة يقول في زاد المعاد: « فجهاد المنافقين أصعب من جهاد الكفار، وهو جهاد خواص الأمة وورثة الرسل، والقائمون به أفراد في العالم، والمشاركون فيه والمعاونون عليه وإن كانوا هم الأقلين عدداً، فهم الأعظمون عند الله قدراً »(٧).

وإمّا الإغلاظ عليهم فيكون بالكلام الغليظ كشدّة الانتهار ونحوه كما قاله غير واحد من السلف(٨). قال ابن مسعود ﷺ: « بيده، فإن لم يستطع فليكفهّر في وجهه »!(٩).أي يعاملهم بالشدة بدون عفو ولا تسامح، فقوله تعالى:﴿ وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ ﴾: أي كن غليظا، أي شديدا في إقامة ما أمر الله به أمثالهم .(١٠)

ومن الإغلاظ عليهم تهديدهم بالقتل قال تعالى:﴿ لَئِنْ لَمْ يَنْتَهِ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ وَالْمُرْجِفُونَ فِي الْمَدِينَةِ لَنُغْرِيَنَّكَ بِهِمْ ثُمَّ لا يُجَاوِرُونَكَ فِيهَا إِلا قَلِيلا. مَلْعُونِينَ أَيْنَمَا ثُقِفُوا أُخِذُوا وَقُتِّلُوا تَقْتِيلا﴾ [الأحزاب ٦٠،٥٩]

و﴿الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ وَالْمُرْجِفُونَ﴾ ثلاثة أوصاف للمنافقين، وفي الآية تهديدهم بالقتل إن أظهروا نفاقهم، وذلك انه لم ينفع معهم التهديد بغضب الله في الآخرة، فانتقل إلى تهديدهم بعقاب في الدنيا يشرعه الله لهم إن هم لم يقلعوا عن ذلك للعلم بأن لا ينفع في أولئك وعيد الآخرة لأنهم لا يؤمنون بالبعث والإغراء: الحث والتحريض، وبهذا الوعيد انكف المنافقون عن إيذاء المسلمين وعن الإرجاف فلم يقع التقتيل فيهم إذ لم يحفظ أن النبي ﷺ قتل منهم أحدا ولا أنهم خرج منهم أحد، وهذه الآية ترشد إلى تقديم إصلاح الفاسد من الأمة على قطعه منها لأن إصلاح الفاسد يكسب الأمة فردا صالحا أو طائفة صالحة تنتفع الأمة منها.(١١)

والإغلاظ على المنافقين لأجل أنّهم قوم في غاية اللؤم والجبن والخسّة، واللئيم إن أحسنت إليه ولاطفته ازداد لؤماً وشرّاً، وإن أغلظت عليه وزجرته، كُفيت شرّه، ولم يجرؤ على إظهار شيء مما يبطنه من الشرّ والفساد، وإثارة الشبه في الدين والتشويش على المؤمنين.

وفي بيان أثر ذلك في المنافقين يذكر ابن عاشور أن العطف في قوله

تعالى: ﴿ يا أَيُّهَا النَّبِيُّ جَاهِدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ﴾ [التوبة: ٧٣] المراد منه إلقاء الرعب في قلوب المنافقين ليشعروا بأن النبي ﷺ والمؤمنين بالمرصاد منهم فلو بدت من أحدهم بادرة يعلم منها نفاقه عومل معاملة الكافر في الجهاد بالقتل والأسر فيحذروا ويكفوا عن الكيد للمسلمين خشية الافتضاح .(١٢)

وقد جمع الله بين جهادهم والإغلاظ عليهم، لأن الأمر يختلف باختلاف درجات النفاق، ومن تستدعي الضرورة الرفق بهم وملاطفتهم، لكن يبقى الأصل في التعامل معهم هو الإغلاظ عليهم، والله تعالى أعلم.

وقد جاهد النبيّ ﷺ المنافقين وأغلظ عليهم، ذكر ابن إسحاق في سيرته أسماء بعض المنافقين من الأنصار واليهود، ثمّ قال: «فكان هؤلاء المنافقون يحضرون المسجد، ويسمعون أحاديث المسلمين، ويسخرون ويستهزئون بدينهم، فاجتمع في المسجد يوماً منهم أناس، فرآهم رسول الله ﷺ يتحدّثون بينهم خافضي أصواتهم، قد لصق بعضهم إلى بعض، فأمر بهم رسول الله ﷺ فأخرجوا من المسجد إخراجاً عنيفاً، فقام أبو أيوب إلى عمرو بن قيس أحد بني النجار - وكان صاحب آلهتهم في الجاهلية - فأخذ برجله فسحبه حتى أخرجه وهو يقول - لعنه الله -: أتخرجني يا أبا أيوب من مربد(١٣) بني ثعلبة؟، ثمّ أقبل أبو أيوب إلى رافع بن وديعة النجاري، فلبّبه بردائه ثمّ نتره نتراً شديداً ولطم وجهه فأخرجه من المسجد وهو يقول: أف لك منافقاً خبيثاً. وقام عمارة بن حزم إلى زيد بن عمرو - وكان طويل اللحية- فأخذ بلحيته وقاده بها قوداً عنيفاً حتى أخرجه من المسجد، ثمّ جمع عمارةُ يديه جميعاً فلدمه بهما لدمة في صدره خرّ منها، قال: يقول: خدشتني يا عمارة! فقال عمارة: أبعدك الله يا منافق، فما أعدّ الله لك من العذاب أشدّ من ذلك فلا تقربنّ مسجد رسول الله ﷺ وقام أبو محمد مسعود بن أوس بن زيد بن أصرم بن زيد بن ثعلبة بن غنم بن مالك بن النجار - وكان بدرياً- إلى قيس بن عمرو بن سهل وكان شاباً - وليس في المنافقين شاب سواه -، فجعل يدفع قفاه حتى أخرجه، وقام رجل من بني خدرة إلى رجل يقال له الحارث بن عمرو- وكان ذا جمّة(١٤)- فأخذ

بجمّته، فسحبه بها سحباً عنيفاً على ما مر به من الأرض حتى أخرجه، فجعل يقول المنافق: قد أغلظت يا أبا الحارث! فقال: إنك أهل لذلك أي عدو الله، لِمَا أُنزل فيك، فلا تقربنّ مسجد رسول الله ﷺ فإنّك نجس. وقام رجل من بني عمرو بن عوف إلى أخيه زوي بن الحارث، فأخرجه إخراجاً عنيفاً، وأفّف منه، وقال: غلب عليك الشيطان وأمره)(١٥).

ولمّا بلغ رسول الله ﷺ أنّ ناساً من المنافقين يجتمعون في بيت سويلم اليهودي، يثبّطون الناس عن رسول الله ﷺ في غزوة تبوك، بعث إليهم طلحة بن عبيد الله في نفر من أصحابه، وأمره أن يحرق عليهم بيت سويلم، ففعل طلحة (١٦).
ولمّا انصرف ﷺ قافلاً إلى المدينة بعد غزوة تبوك، وكان في الطريق ماء يخرج من وَشَل(١٧) يروي الراكب والراكبين والثلاثة، بواد يقال له وادي المشقق، فقال رسول الله ﷺ: (من سبقنا إلى ذلك الماء فلا يستقينّ منه شيئاً حتّى نأتيه)، قال: فسبقه إليه نفر من المنافقين، فاستقوا ما فيه، فلمّا أتاه رسول الله ﷺ وقف عليه فلم ير فيه شيئاً، فقال: (من سبقنا إلى هذا الماء؟)، فقيل له: يا رسول الله، فلان وفلان. فقال: (أو لم أنههم أن يستقوا منه حتّى آتيه!)، ثم لعنهم ودعا عليهم، ثم نزل فوضع يده تحت الوَشَل فجعل يصبّ في يده ما شاء الله أن يصبّ، ثمّ نضحه به ومسحه بيده ودعا بما شاء الله أن يدعو، فانخرق من الماء كما يقول من سمعه ما أنّ له حسّاً كحسّ الصواعق، فشرب الناس واستقوا حاجتهم منه(١٨).

وإغلاظه صلى الله عليه وسلم عليهم لم يكن في كلّ وقت، ولا مع كلّ منافق، بل قد كان ﷺ يترفق برأس المنافقين عبد الله بن أبيّ بن سلول، ويحسن صحبته، وهذا من السياسة الشرعية، فإنّ ابن أبيّ بن سلول لمّا قال: ﴿ لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجنّ الأعزّ منها الأذلّ ﴾ بلغ ذلك رسولَ الله ﷺ وعنده عمر ﷺ فقال: ألا نقتل يا رسول الله هذا الخبيث ؟ قال ﷺ: (دعه لا يتحدث الناس أن محمداً يقتل أصحابه !)(١٩).

ولمّا جاء عبد الله بن عبد الله بن أُبيّ بن سلول إلى رسول الله ﷺ فقال: يا

رسول الله، إنّه بلغني أنّك تريد قتل عبد الله بن أُبيّ فيما بلغك عنه، فإن كنت فاعلاً فمر لي به فأنا أحمل إليك رأسه فو الله لقد علمت الخزرج ما كان بها من رجل أبرّ بوالده منّي، وإنّي أخشى أن تأمر به غيري فيقتله، فلا تدعني نفسي أن أنظر إلى قاتل عبد الله بن أُبيّ يمشي في الناس، فأقتله فأقتل مؤمناً بكافر، فأدخل النار. فقال رسول الله ﷺ: (بل نترفّق به، ونحسن صحبته ما بقي معنا)، وجعل بعد ذلك إذا أحدث الحدث كان قومه هم الذين يعاتبونه ويأخذونه ويعنّفونه، فقال رسول الله ﷺ لعمر بن الخطاب رضي الله عنه حين بلغه ذلك من شأنهم: (كيف ترى يا عمر، أما والله لو قتلته يوم قلت لي لأرعدت له أُنُف لو أمرتها اليوم بقتله لقتلته)، فقال عمر: قد والله علمت لأمرُ رسول الله ﷺ أعظم بركة من أمري(٢٠).

قال الخطابي: «إنّما فعل النبيّ ﷺ مع عبد الله بن أبي ما فعل، لكمال شفقته على من تعلّق بطرف من الدين، ولتطييب قلب ولده عبد الله الرجل الصالح، ولتألّف قومه من الخزرج لرياسته فيهم »(٢١).

والمقصود أنّ جهاد المنافقين والإغلاظ عليهم لا يكون بقتالهم بالسيف، وإنّما بما دون ذلك، لأنهم لم يشكلوا جيشا أو جماعات تحمل السلاح بل كان حالهم ملتبسا فطبيعتهم التخفي تحت ستار الإسلام .

المبحث الثاني

ترك الصلاة عليهم، والقيام على قبورهم

قال الله تعالى:﴿ وَلا تُصَلِّ عَلَى أَحَدٍ مِنْهُمْ مَاتَ أَبَدًا وَلا تَقُمْ عَلَى قَبْرِهِ إِنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَمَاتُوا وَهُمْ فَاسِقُونَ﴾ [التوبة: ٨٤].

أمر الله تعالى رسوله ﷺ أن يتبرأ من المنافقين، وأن لا يصلي على أحد منهم إذا مات، وأن لا يقوم على قبره ليستغفر له أو يدعو له، لأنّهم كفروا بالله ورسوله . وهذا حكم عامّ في كلّ من عُرف نفاقه،وإن كان سبب نزول الآية في عبد الله بن أبي بن سلول رأس المنافقين.(٢٢)

وقد أخرج الشيخان عن ابن عمر رضي الله عنه قال: « لمّا توفي عبد الله، جاء ابنه عبد

الله بن عبد الله إلى رسول الله ﷺ فسأله أن يعطيه قميصه يكفّن فيه أباه، فأعطاه، ثم سأله أن يصلّي عليه، فقام رسول الله ﷺ ليصلّي، فقام عمر فأخذ بثوب رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله، تصلّي عليه وقد نهاك ربّك أن تصلّي عليه؟! فقال رسول الله ﷺ: (إنّما خيّرني الله فقال: ﴿اسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لا تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ إِنْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ ﴾، وسأزيده على السبعين). قال: إنّه منافق! قال: فصلّى عليه رسول الله ﷺ، فأنزل الله: ﴿ وَلا تُصَلِّ عَلَى أَحَدٍ مِنْهُمْ مَاتَ أَبَدًا وَلا تَقُمْ عَلَى قَبْرِهِ إِنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَمَاتُوا وَهُمْ فَاسِقُونَ ﴾ [التوبة: ٨٤] »(٢٣).

قال الرازي في تفسيره: « اعلم أنّه تعالى أمر رسوله بأن يسعى في تخذيلهم وإهانتهم وإذلالهم، فالذي سبق ذكره في الآية الأولى، وهو منعهم من الخروج معه إلى الغزوات، سبب قويّ من أسباب إذلالهم وإهانتهم، وهذا الذي ذكره في هذه الآية وهو منع الرسول ﷺ من أن يصلي على من مات منهم سبب آخر قوي في إذلالهم وتخذيلهم. » (٢٤).

وهذا النهي يشمل الأئمّة، والقادة، والعلماء، وذوي الفضل، أمّا عامّة الناس فلا حرج عليهم في الصلاة على من أظهروا الإسلام، ويخفى نفاقهم على كثير من الناس، ومن ترك الصلاة عليهم من العامّة، فلا حرج عليه. ودليل هذا ما أخرجه الإمام أحمد في مسنده أنّ النبيّ ﷺ كان إذا دعي لجنازة سأل عنها، فإن أُثني عليها خيرا قام فصلّى عليها، وأن أُثني عليها غير ذلك قال لأهلها: (شأنكم بها) ولم يصلّ عليها. ولم ينه عن الصلاة عليها(٢٥).

وكان عمر بن الخطاب رضي الله عنه لا يصلّي على جنازةٍ من جُهل حاله حتّى يصلّي عليها حذيفة بن اليمان (٢٦)، رضي الله عنه لأنّه كان يعلم أعيان المنافقين أخبره بهم رسول الله ﷺ (٢٧).

وفي ترك الصلاة على هؤلاء أو القيام على قبورهم إذلال وصغار لأهل النفاق، الذين يحبون الرياسة والوجاهة وأن يذكرهم الناس بالمدح والثناء حتى بعد وفاتهم لينالوا شرفا وعزة لهم ولأقوامهم، فعاملهم الله سبحانه بنقيض ما أرادوا،

ويشهد لذلك ما جاء أن عبد الله بن أبي بن سلول طلب من رسول الله ﷺ في مرض موته أن يصلي عليه بعد موته،وقد علق الأحوذي على ذلك في شرح الترمذي فقال: "أراد بذلك دفع العار عن ولده وعشيرته بعد موته " (٢٨) . فأي ذل فوق أن يترك رسول الله ﷺ الصلاة والدعاء لمن مات منهم بغضا له، فإن في هذا خفضا لشأنهم في المجتمع المسلم حتى لا تتشوف له النفوس الضعيفة، إذا علمت أنهم في المجتمع ذليلون حقيرون مهانون، و النفوس مولعة بتقليد القوي الغالب .

المبحث الثالث: منعهم من الخروج للقتال مع المؤمنين: قال تعالى: ﴿فَإِنْ رَجَعَكَ اللَّهُ إِلَى طَائِفَةٍ مِنْهُمْ فَاسْتَأْذَنُوكَ لِلْخُرُوجِ فَقُلْ لَنْ تَخْرُجُوا مَعِيَ أَبَدًا وَلَنْ تُقَاتِلُوا مَعِيَ عَدُوًّا إِنَّكُمْ رَضِيتُمْ بِالْقُعُودِ أَوَّلَ مَرَّةٍ فَاقْعُدُوا مَعَ الْخَالِفِينَ ﴾ [التوبة: ٨٣].

في هذه الآية نهي من الله تعالى لنبيه ﷺ أن يأذن للمنافقين بالخروج معه للغزو، وفي ذلك تعزير لهم وعقوبة بألا يصحبوا نبيه في حرب أبداً. ولذا جمع الله بين (لن) و (أبداً) للتأكيد على منعهم من الخروج في المستقبل للغزو مع المسلمين(٢٩).

وسبب منعهم من الخروج ما ذكره الله في كتابه عنهم أنهم إذا خرجوا نشروا الفساد والفتنة بين المؤمنين، قال تعالى: ﴿ وَلَوْ أَرَادُوا الْخُرُوجَ لأَعَدُّوا لَهُ عُدَّةً وَلَكِنْ كَرِهَ اللَّهُ انْبِعَاثَهُمْ فَثَبَّطَهُمْ وَقِيلَ اقْعُدُوا مَعَ الْقَاعِدِينَ . لَوْ خَرَجُوا فِيكُمْ مَا زَادُوكُمْ إِلا خَبَالا وَلأَوْضَعُوا خِلالَكُمْ يَبْغُونَكُمُ الْفِتْنَةَ وَفِيكُمْ سَمَّاعُونَ لَهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ ﴾ [التوبة: ٤٦، ٤٧].

ومما جاء في النهي عن خروجهم للقتال قوله تعالى:﴿ سَيَقُولُ الْمُخَلَّفُونَ إِذَا انطَلَقْتُمْ إِلَى مَغَانِمَ لِتَأْخُذُوهَا ذَرُونَا نَتَّبِعْكُمْ يُرِيدُونَ أَنْ يُبَدِّلُوا كَلامَ اللَّهِ قُلْ لَنْ تَتَّبِعُونَا كَذَلِكُمْ قَالَ اللَّهُ مِنْ قَبْلُ فَسَيَقُولُونَ بَلْ تَحْسُدُونَنَا بَلْ كَانُوا لا يَفْقَهُونَ إِلا قَلِيلا﴾ [الفتح: ١٥]

قال ابن قدامة: « ولا يستصحب الأمير معه مخذّلاً، وهو الذي يثبّط النّاس عن الغزو، ويزهّدهم في الخروج إليه والقتال والجهاد، مثل أن يقول: الحرّ أو البرد

شديد، والمشقّة شديدة، ولا تؤمن هزيمة هذا الجيش، وأشباه هذا. ولا مرجفاً، وهو الذي يقول: قد هلكت سرية المسلمين، ومالهم مدد، ولا طاقة لهم بالكفّار، والكفّار لهم قوّة ومدد وصبر، ولا يثبت لهم أحد، ونحو هذا. ولا من يعين على المسلمين بالتجسّس للكفار، وإطلاعهم على عورات المسلمين، ومكاتبتهم بأخبارهم، ودلالتهم على عوراتهم، أو إيواء جواسيسهم. ولا من يوقع العداوة بين المسلمين، ويسعى بالفساد .. لأنّ هؤلاء مضرّة على المسلمين، فيلزمه منعهم. وإن خرج معه أحدُ هؤلاء، لم يسهم له، ولم يرضخ، وإن أظهر عون المسلمين، لأنّه يحتمل أن يكون أظهره نفاقاً، وقد ظهر دليله، فيكون مجرّد ضرر، فلا يستحقّ ممّا غنموا شيئاً.. »(٣٠).

وإنما استأذن بعضهم مع جرأتهم على التخلّف، واختلاقهم الأعذار لذلك، لتثبيط المؤمنين وإيقاع الفتنة بينهم كما فعل عبد الله بن أبيّ في أُحُد لمّا رجع بثلث الجيش، و طمعا في الغنيمة. لكنّهم لا يخرجون للقتال، وإن قاتلوا قاتلوا قتالا قليلا رميا بالحجارة ونحوها، فمنعوا من الخروج ..

وذكر أبو حيان سببا آخر لمنعهم من الخروج وهو أن منعهم جاء عقوبة لهم وإظهارا لدناءة منزلتهم وسوء حالهم، وقال" ولا خزي أعظم من أن يكون إنسان قد رفضه الشرع ورده كالجمل الأجرب".(٣١)، وقد صدق فإن منعهم فيه تنفير الناس منهم، وإهانتهم واحتقارهم، ولهذا أثر عظيم في صد الناس عن النفاق فإن النفس البشرية مفطورة على حب تقديرها وتوقيرها .

ومنعهم من الخروج يقتضي من باب أولى أن لا يكونوا قادة في الجيش، لما في ذلك من الخطر على المسلمين، ولو أن المسلمين امتثلوا أمر ربهم فلم يرفعوا شأن المنافقين ولم يسودوهم، لضعف شأن النفاق في المجتمعات المسلمة كما ضعف في عهد رسول الله ﷺ.

المبحث الرابع

حث المؤمنين على اتخاذ موقف واضح منهم

المنافقون أشد أعداء الإسلام، والتعامل معهم يستدعي الحسم القاطع، وعدم التردد في الحذر منهم والبعد عنهم، فهم ليسوا أهلا لإحسان الظن بهم، ولعل الله أن يهدي أقواما منهم يتأثرون بهذه المعاملة، فيتركوا ما وقعوا فيه من النفاق، أو يبتعدوا عنه إن لم يكونوا من أهله، وقد عاتب الله المؤمنين حين ترددوا في أمر المنافقين فقال سبحانه: ﴿فَمَا لَكُمْ فِي الْمُنَافِقِينَ فِئَتَيْنِ وَاللَّهُ أَرْكَسَهُمْ بِمَا كَسَبُوا أَتُرِيدُونَ أَنْ تَهْدُوا مَنْ أَضَلَّ اللَّهُ وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَلَنْ تَجِدَ لَهُ سَبِيلا﴾ [النساء: ٨٨] .

والآية نزلت في منافقين يقيمون بين أظهر المشركين، وقد يخرجون إلى بلاد المسلمين ففي حال الإقامة يوافقون المشركين في دينهم ومذهبهم، وفي حال خروجهم للمسلمين يظهرون لهم الإسلام نفاقا، ونفاقهم جعل المؤمنين يختلفون في حالهم ما بين مصدّق بإسلامهم ومكذّب، فأنكر الله هذا التردد في شأنهم وقد ظاهروا الكفّار، وأقاموا بين ظهرانيهم مع قدرتهم على الهجرة، ونهى عن إحسان الظنّ بهم واتّخاذهم أولياء حتى يخرجوا من بلاد الكفر إلى بلاد الإسلام، فإن لم يفعلوا، فقد أحلّ الله دماءهم وأموالهم، وردّهم إلى أحكام أهل الشرك. (٣٢)، ولهذا قال الله تعالى: ﴿ وَدُّوا لَوْ تَكْفُرُونَ كَمَا كَفَرُوا فَتَكُونُونَ سَوَاءً فَلا تَتَّخِذُوا مِنْهُمْ أَوْلِيَاءَ حَتَّى يُهَاجِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَخُذُوهُمْ وَاقْتُلُوهُمْ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ وَلا تَتَّخِذُوا مِنْهُمْ وَلِيًّا وَلا نَصِيرًا. إِلا الَّذِينَ يَصِلُونَ إِلَى قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ مِيثَاقٌ أَوْ جَاءُوكُمْ حَصِرَتْ صُدُورُهُمْ أَنْ يُقَاتِلُوكُمْ أَوْ يُقَاتِلُوا قَوْمَهُمْ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَسَلَّطَهُمْ عَلَيْكُمْ فَلَقَاتَلُوكُمْ فَإِنِ اعْتَزَلُوكُمْ فَلَمْ يُقَاتِلُوكُمْ وَأَلْقَوْا إِلَيْكُمُ السَّلَمَ فَمَا جَعَلَ اللَّهُ لَكُمْ عَلَيْهِمْ سَبِيلا ﴾ [النساء: ٨٩،٩٠]

قال ابن عبّاس ﷺ: "نزلت في قوم كانوا بمكّة قد تكلّموا بالإسلام، وكانوا يظاهرون المشركين، فخرجوا من مكّة يطلبون حاجة لهم، فقالوا: إن لقينا أصحاب محمّد فليس علينا منهم بأس، وإنّ المؤمنين لمّا أخبروا أنّهم قد خرجوا من مكّة قالت

فئة من المؤمنين: اركبوا إلى الجبناء فاقتلوهم فإنّهم يظاهرون عليكم عدوّكم، وقالت فئة أخرى من المؤمنين: سبحان الله - أو كما قالوا -: أتقتلون قوماً قد تكلّموا بمثل ما تكلّمتم به من أجل أنّهم لم يهاجروا ولم يتركوا ديارهم نستحلّ دماءهم وأموالهم ؟ فكانوا كذلك فئتين، والرسول عندهم لا ينهى واحداً من الفريقين عن شيء، فنزلت الآية"[٣٣]. فأنكر الله انقسام المؤمنين فئتين في أمر المنافقين، وشدد عليهم بأن يجعلوا الأمور على حقيقتها، وأن يحسم أمر ذلك .

ولهذا وجب على المؤمنين عدم التساهل مع المنافقين أو إحسان الظن بهم، فإنّ هذا من التساهل في هذا الدين. ذلك أنّ قول جماعة من المؤمنين: « سبحان الله! أتقتلون قوماً قد تكلّموا بمثل ما تكلمتم به من أجل أنّهم لم يهاجروا ولم يتركوا ديارهم، نستحلّ دماءهم وأموالهم! » .. وتصوّرهم للأمر على أنّه كلام مثل ما يتكلّم به المسلمون! مع أنّ شواهد الحال كلّها خلاف ذلك، فإن المنافقين قد قالوا: «إن لقينا أصحاب محمّد فليس علينا منهم بأس ». وقد شهدت عليهم فئة من المؤمنين بقولهم: « يظاهرون عدوّكم » فإحسان الظن بهؤلاء فيه تساهل كبير، في ظروف تستدعي الوضوح الكامل، والحسم القاطع. فإنّ مجرد الكلام باللسان، مع عمل فيه مساعدة عدوّ المسلمين الظاهرين هو النفاق بعينه. ولا موضع هنا للتسامح أو الإغضاء [٣٤] .

وقد استثنى الله ــ عزّ وجلّ ــ من هؤلاء المنافقين ثلاث طوائف، لم يبح دماءهم ولا أموالهم:

- **الطائفة الأولى:** الذين لجئوا إلى قوم بينهم وبين المسلمين مهادنة، أو عقد ذمة، فيُجعل حكمهم كحكمهم. وهي التي عناها الله بقوله: ﴿ إِلا الَّذِينَ يَصِلُونَ إِلَى قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ مِيثَاقٌ﴾ [النساء: ٩٠].
- **والطائفة الثانية:** الذين يخرجون مع قومهم وصدورهم حصرةٌ أي ضيقة، مبغضين أن يقاتلوا المسلمين احتراما لهم، ولا يهون عليهم أيضاً أن يكونوا مع جند المؤمنين يقاتلون قومهم، فهم لا للمسلمين ولا عليهم [٣٥].

- **والطائفة الثالثة:** ذكرها السعدي في تفسيره وهم قوم يريدون مصلحة أنفسهم بقطع النظر عن احترام المسلمين، وهم الذين قال الله فيهم: ﴿ سَتَجِدُونَ آخَرِينَ ﴾ أي: من هؤلاء المنافقين. ﴿ يُرِيدُونَ أَنْ يَأْمَنُوكُمْ ﴾ أي: خوفا منكم ﴿ وَيَأْمَنُوا قَوْمَهُمْ كُلَّمَا رُدُّوا إِلَى الْفِتْنَةِ أُرْكِسُوا فِيهَا ﴾ أي: لا يزالون مقيمين على كفرهم ونفاقهم، وكلما عرض لهم عارض من عوارض الفتن أعماهم ونكسهم على رءوسهم، وازداد كفرهم ونفاقهم، وهؤلاء في الصورة كالفرقة الثانية، وفي الحقيقة مخالفة لها.فإنّ الفرقة الثانية تركوا قتال المؤمنين احترامًا لهم لا خوفاً على أنفسهم، وأمّا هذه الفرقة فتركوه خوفاً لا احتراما، بل لو وجدوا فرصة في قتال المؤمنين، فإنّهم مستعدّون لانتهازها، فهؤلاء إن لم يتبيّن منهم ويتّضح اتّضاحًا عظيمًا اعتزال المؤمنين وترك قتالهم، فإنّهم يقاتَلون (٣٦).

المبحث الخامس

النهي عن موالاتهم

الموالاة: هي النصرة، والمحبة، والاتباع، ومن صورها المحرمة: اتخاذ أهلها أصدقاء وأصحاباً، ومخالطتهم بالأكل أو اللعب معهم ونحو ذلك. ومن أخطر صور موالاتهم اتخاذهم بطانة، والبطانة في اللغة: ما يلي البدن من اللباس ونحوه(٣٧)، فاستعير هذا المعنى في اتّخاذ الكافرين والمنافقين أولياء وتقريبهم وإطلاعهم على أسرار المسلمين.

قال تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَتَّخِذُوا بِطَانَةً مِنْ دُونِكُمْ لا يَأْلُونَكُمْ خَبَالا وَدُّوا مَا عَنِتُّمْ قَدْ بَدَتِ الْبَغْضَاءُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ وَمَا تُخْفِي صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ الْآيَاتِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْقِلُونَ. هَا أَنْتُمْ أُولاءِ تُحِبُّونَهُمْ وَلا يُحِبُّونَكُمْ وَتُؤْمِنُونَ بِالْكِتَابِ كُلِّهِ وَإِذَا لَقُوكُمْ قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَوْا عَضُّوا عَلَيْكُمُ الأَنَامِلَ مِنَ الْغَيْظِ قُلْ مُوتُوا بِغَيْظِكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴾ [آل عمران: ١١٨، ١١٩] .

وقيل المقصود في الآية: من يصرح بكفره، من اليهود وغيرهم(٣٨). ولا تعارض بين القولين، لأنّ المنافقين كفّار في الباطن، فلا فرق بينهم وبين الكفّار إلا

في إخفاء كفرهم. قال مجاهد: « نزلت في قوم من المؤمنين كانوا يصافون المنافقين، فنهاهم الله تعالى عن ذلك »(٣٩). وقال ابن جرير: « وإنّما جعل البطانة مثلاً لخليل الرجل، فشبّهه بما ولي بطنه من ثيابه، لحلوله منه في اطّلاعه على أسراره وما يطويه عن أباعده وكثير من أقاربه محلّ ما ولي جسده من ثيابه » (٤٠)،

وقد ذمّ الله المنافقين في هذه الآية والآيتين بعدها من لأسباب:

أولها: أنّهم لا يألون المؤمنين خبالاً، أي " يسعون في ما يضرهم بكلّ ما يستطيعون من المكر والخديعة .

وثانيها: مودّتهم العنت للمؤمنين، أي: ما يشقّ عليهم ويحرجهم .

وثالثها: ظهور البغضاء من أفواههم، بالشتيمة والوقيعة في أعراض المؤمنين، والتشكيك فيما هم عليه من الحقّ. أو إطلاع المشركين والكفرة على أسرار المؤمنين. وما تخفي صدورهم من العداوة والغيظ للمؤمنين أكبر مما نطقوا بألسنتهم.

ورابعها: أنّهم إذا لقوا المؤمنين أظهروا لهم الإيمان، وإذا خلوا عضّوا أناملهم من الغيظ على المؤمنين الذين يحولون بينهم وبين تحقيق ما يصبون إليه من الكفر والفجور والفساد.

وخامسها: الاستياء مما يمسّ المؤمنين من الخير والنصر، والفرح بما يصيبهم من الشرّ والمصائب.(٤١)

وقد قال تعالى: ﴿إِنْ تَمْسَسْكُمْ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ وَإِنْ تُصِبْكُمْ سَيِّئَةٌ يَفْرَحُوا بِهَا وَإِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا لا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئًا إِنَّ اللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ﴾ [آل عمران ١٢٠]. أي وإن تصبروا على طاعة الله، واتباع أمره فيما أمركم به، ومن ذلك موالاة المؤمنين دون غيرهم، واجتناب ما نهاكم عنه من اتخاذ بطانة لأنفسكم من الكفار والمنافقين، لا يضركم كيدهم شيئا، فشرط تعالى نفي ضررهم بالصبر والتقوى، فكان ذلك تسلية للمؤمنين وتقوية لنفوسهم. (٤٢)

وإذا فعل المؤمنون ذلك لم يصبهم أذى المنافقين فيموت المنافق بغيظه،

ويعود من حيث أتى خائبا خاسرا لم ينل خيرا وفي هذا تبكيت لهم وخسارة، لو عقلوه لرجع الكثير منهم عن نفاقه، لأنه لن يجد أحدا من المؤمنين يقربه ويدنيه ويخالطه أو يواليه. والقوم أهل شهوات قال تعالى:﴿ وَاللَّهُ يُرِيدُ أَنْ يَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَيُرِيدُ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الشَّهَوَاتِ أَنْ تَمِيلُوا مَيْلًا عَظِيمًا﴾ [النساء ٢٧]. والذين يتبعون الشهوات: هم أهل الباطل، ويدخل فيهم المنافقون دخولا أوليا .

المبحث السادس

عدم قبول اعتذارهم

قلوب المنافقين مملوءة ببغض المسلمين والحقد عليهم،ولما ظهر ذلك على ألسنتهم سمع به بعض المؤمنين فأخبر به رسول الله ﷺ فجاءوا معتذرين، فأمر الله نبيّه ﷺ ألا يقبل اعتذارهم، وأن يحكم بكفرهم لإظهارهم ما في قلوبهم من البغض للنبيّ ﷺ وأصحابه، واستهزائهم بهم.

قال تعالى: ﴿ يَحْذَرُ الْمُنَافِقُونَ أَنْ تُنَزَّلَ عَلَيْهِمْ سُورَةٌ تُنَبِّئُهُمْ بِمَا فِي قُلُوبِهِمْ قُلِ اسْتَهْزِئُوا إِنَّ اللَّهَ مُخْرِجٌ مَا تَحْذَرُونَ. وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ قُلْ أَبِاللَّهِ وَآيَاتِهِ وَرَسُولِهِ كُنْتُمْ تَسْتَهْزِئُونَ. لا تَعْتَذِرُوا قَدْ كَفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ إِنْ نَعْفُ عَنْ طَائِفَةٍ مِنْكُمْ نُعَذِّبْ طَائِفَةً بِأَنَّهُمْ كَانُوا مُجْرِمِينَ﴾ [التوبة: ٦٤: ٦٦] .

وسبب نزول هذه الآيات ما أخرجه ابن جرير وغيره أنّ رجلاً من المنافقين قال لعوف بن مالك ﷺ في غزوة تبوك: ما لقرّائنا هؤلاء أرغبنا بطوناً، وأكذبنا ألسنة، وأجبننا عند اللقاء! فقال له عوف: ولكنّك منافق ! لأخبرنّ رسول الله ﷺ! فذهب عوف إلى رسول الله ﷺ ليخبره، فوجد القرآن قد سبقه، قال زيد: قال عبد الله بن عمرﷺ: فنظرت إليه متعلّقاً بحقَب(٤٣) ناقة رسول الله ﷺ تنكبه الحجارة يقول: ﴿ إنّما كنّا نخوض ونلعب ﴾ فيقول له النبيّ ﷺ: ﴿ أبالله وآياته ورسوله كنتم تستهزئون ؟ ﴾ ما يزيده(٤٤).

والمنافقون لم يكونوا مؤمنين، فالمعنى: أظهرتم الكفر بعد ما كنتم قد أظهرتم الإيمان، فإنهم لمّا حصل منهم الاستهزاء، قيل لهم: قد كفرتم بعد إيمانكم.

وقيل: معناه قد كفرتم عند المؤمنين بعد أن كنتم عندهم مؤمنين.

ومن الأعذار التي أمر الله سبحانه رسوله ﷺ بعدم قبولها: اعتذارهم في التخلّف عن الجهاد، مع توبيخهم بقول بليغ يصل إلى أعماق نفوسهم، قال الله تعالى: ﴿ يَعْتَذِرُونَ إِلَيْكُمْ إِذَا رَجَعْتُمْ إِلَيْهِمْ قُلْ لا تَعْتَذِرُوا لَنْ نُؤْمِنَ لَكُمْ قَدْ نَبَّأَنَا اللَّهُ مِنْ أَخْبَارِكُمْ وَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلَى عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ [التوبة: ٩٤]. فأعلم الله المنافقين أنّ ألاعيبهم لا تنطلي على النبيّ ﷺ والمؤمنين، وأنّ خططهم مكشوفة، وأستارهم مهتوكة، فلا يتمادون في غيّهم وقد جمع الله ضمير المتكلم للمبالغة في حسم أطماعهم من تصديق أحد لهم، وافتضاحهم عند كل المؤمنين. (٤٥)

ولهذا عاتب الله نبيه ﷺ لما قبل عذرهم بقوله تعالى:﴿عَفَا اللَّهُ عَنْكَ لِمَ أَذِنْتَ لَهُمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَتَعْلَمَ الْكَاذِبِينَ. لا يَسْتَأْذِنُكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ أَنْ يُجَاهِدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالْمُتَّقِينَ. إِنَّمَا يَسْتَأْذِنُكَ الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَارْتَابَتْ قُلُوبُهُمْ فَهُمْ فِي رَيْبِهِمْ يَتَرَدَّدُون.﴾ [التوبة: ٤٣:٤٥]

قال ابن كثير في معنى الآية: « هلا تركتهم لما استأذنوك، فلم تأذن لأحد منهم في القعود، لتعلم الصادق منهم في إظهار طاعتك من الكاذب، فإنهم قد كانوا مصرين على القعود عن الغزو وإن لم تأذن لهم فيه. » (٤٦).

وفي عدم قبول أعذارهم بيان لقوة المسلمين وعزتهم، حتى يعلم المنافق أنه وإن راج أمره بهذه الأعذار عن بعض الناس فليس يروج على ذوي الأبصار وأهل العلم من المسلمين الذين قرءوا كلام الله وفقهوه، وهذا فيه أعظم الأثر على المنافقين الذين لا يريدون أن يعلم الناس بكفرهم ولهذا نافقوا، لأنهم إن اعتذروا كذبا ظهر نفاقهم .

المبحث السابع

قبول ظواهرهم وعدم التصريح بأسمائهم

مرض قلوب المنافقين خفي، لأنهم يبالغون في كتمانه، وتمويهه بالتظاهر بالإيمان. قال تعالى: ﴿ أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ أَنْ لَنْ يُخْرِجَ اللَّهُ أَضْغَانَهُمْ. وَلَوْ نَشَاءُ لأَرَيْنَاكَهُمْ فَلَعَرَفْتَهُمْ بِسِيمَاهُمْ وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِي لَحْنِ الْقَوْلِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ أَعْمَالَكُم﴾ [محمد ٢٩ ،٣٠].

ومعنى الآيات: ولو نشاء لأريناك أشخاصهم، فعرفتهم عيانا، ولكن لم يفعل تعالى ذلك في جميع المنافقين سترا منه على خلقه، وحملا للأمور على ظاهر السلامة، ورد السرائر إلى عالمها .(٤٧)

والمسلم مطالب بالحكم على ظواهر الناس،لا على بواطنهم، فأمر السرائر إلى الله. قال ابن حجر في فتح الباري: "وكلهم – يعني العلماء-أجمعوا على أن أحكام الدنيا على الظاهر والله يتولى السرائر، وقد قال رسول الله ﷺ لأسامة: (هلا شققت عن قلبه)(٤٨). وقال للذي ساره في قتل رجل: (أليس يصلي؟)قال: نعم، قال: (أولئك الذين نهيت عن قتلهم.)(٤٩) "(٥٠)

وفي هذا التشريع من الحكم ما لا يحصى منها: ألا يتهم أحد من المؤمنين بالنفاق وهو يحب الله ورسوله، ومنها وهو موضوع هذا البحث: أثره العظيم في عقيدة المنافق فقد ستر الله عليه في الدنيا، وباب التوبة مفتوح له، وفي هذا تأليف لقلبه حتى يسهل رجوعه للإيمان. ولو كان في مجتمع يعيره الناس فيه بالنفاق ويعينونه باسمه لشق عليه الرجوع.

المبحث الثامن

الإعراض عنهم وموعظتهم

قال تعالى مخاطبا رسوله ﷺ في شان المنافقين: ﴿ أُولَئِكَ الَّذِينَ يَعْلَمُ اللَّهُ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَعِظْهُمْ وَقُلْ لَهُمْ فِي أَنْفُسِهِمْ قَوْلا بَلِيغًا ﴾ [النساء: ٦٣].

وقد جاء ذلك في سياق الحديث عن التحاكم إلى شرع الله، فذكر أن المنافقين

يحبون التحاكم إلى الطواغيت كالكهّان ورؤساء الكفار ويصدون صدودا عن التحاكم إلى شرع الله، مع ادعائهم الإيمان، وحين تحلّ بهم مصيبة تلجئهم إلى النبيّ صلى الله عليه يحلفون زوراً وبهتاناً أنّهم ما أرادوا إلا الإحسان والتوفيق، وهم ما أرادوا إلا الفرار من الشرع، وهذا حال المنافقين في كلّ زمان ومكان، فلا شيء أثقل عليهم من أحكام الله التي تحول بينهم وبين شهواتهم، ولهذا قال الله تعالى معقّباً على ذلك: ﴿ أُولَئِكَ الَّذِينَ يَعْلَمُ اللَّهُ مَا فِي قُلُوبِهِمْ ﴾: أي من الكفر والنفاق. ثمّ أمر الله سبحانه وتعالى نبيه بالتعامل المناسب لقلوبهم المؤثر فيهم فأمر بالإعراض عنهم:أي ترك معاقبتهم في الدنيا(٥١)، اكتفاء بظواهرهم، لأنّ العقوبات كفّارات لأصحابها، وهؤلاء جرمهم لا كفّارة له، إذ هم كفّار في الباطن كما قال الله تعالى عنهم: ﴿ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ آمَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا فَطُبِعَ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لا يَفْقَهُونَ ﴾ [المنافقون: ٣].

والإعراض يعني عدم الحزن من صدودهم عنه، و فسّره ابن جرير بأن يدعهم فلا يعاقبهم في أبدانهم وأجسامهم (٥٢)، وقال البغوي: (أعرض عنهم) أي: لا تقبل عذرهم(٥٣). وأمّا الموعظة، فهي تذكيرهم بالله باللسان، وتخويفهم من عقابه في الدارين، وترغيبهم في ثوابه إن آمنوا، فلعلّ هذه الموعظة تشفي قلوبهم المريضة(٥٤).

وأمّا القول البليغ، فهو الذي يبلغ قرارة نفوسهم. قال الزمخشري: « أي: قل لهم قولاً بليغاً في أنفسهم، مؤثّراً في قلوبهم، يغتمّون به اغتماماً، ويستشعرون منه الخوف استشعاراً، وهو التوعّد بالقتل والاستئصال إن نجم منهم النفاق، وأطلع قرنه. وأخبرهم أنّ ما في نفوسهم من الدغل والنفاق معلوم عند الله، وأنّه لا فرق بينكم وبين المشركين، وما هذه المكافّة إلا لإظهاركم الإيمان وإسراركم الكفر وإضماره، فإن فعلتم ما تكشفون به غطاءكم لم يبق إلا السيف »(٥٥).

ويرى القرطبي أنّ الموعظة تكون على الملأ، والقول البليغ يكون في حال السرّ، أي: " انصحهم فيما بينك وبينهم بكلام بليغ رادع لهم "(٥٦).

وفي سورة التوبة أمثلة كثيرة على الأقوال البليغة التي أمر الله نبيه ﷺ

والمؤمنين أن يقولوها للمنافقين ردا على شبهاتهم وهي أقوال عقلية شرعية، فالقوم لا يؤثر فيهم الرد بالشرع وحده، لأنهم في الحقيقة غير مؤمنين به فلا بد للتأثير فيهم وإيصال حكمة الله إلى قلوبهم من حجج منطقية عقلية،وقد كان المنافقون إذا أصابت المؤمنين مُصيبَةٌ يَقُولُوا: قَدْ أَخَذْنَا أَمْرَنَا مِنْ قَبْلُ أي: قد احترزنا من متابعتهم من قبل هذا، وَيَتَوَلَّوْا وَهُمْ فَرِحُونَ .فأرشد الله تعالى رسوله صلوات الله وسلامه عليه إلى جوابهم في عداوتهم هذه، وأمره أن يقول لهم:﴿ لَنْ يُصِيبَنَا إِلا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَنَا ﴾، أي: نحن تحت مشيئة الله وقدره، هُوَ مَوْلانَا، أي: سيدنا وملجؤنا،ونحن متوكلون عليه، وهو حسبنا ونعم الوكيل. (٥٧)

ومن هذا الباب قوله تعالى:﴿ إِنْ تُصِبْكَ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ وَإِنْ تُصِبْكَ مُصِيبَةٌ يَقُولُوا قَدْ أَخَذْنَا أَمْرَنَا مِنْ قَبْلُ وَيَتَوَلَّوْا وَهُمْ فَرِحُونَ. قُلْ لَنْ يُصِيبَنَا إِلا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَنَا هُوَ مَوْلانَا وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ﴾ [التوبة ٥٠، ٥١] وأي قول بليغ فوق هذا القول الذي لا يحيد عن التأثر به إلا من ختم الله على سمعه وبصره ؟!، فكل من فرح من المنافقين بمصيبة تحل بالمؤمنين ينبغي أن يكون هذا جوابه، وهو الاحتجاج عليه بإيماننا بقضاء الله وقدره، ولن يضيرنا شيء ما دمنا نتوكل عليه .

وقريب من ذلك في الرد على المنافقين بالتسليم لقضاء الله وقدره ما جاء في الآثار أن المنافقين يوم أحد قال بعضهم لبعض: لو كان لنا عقول لم نخرج مع محمد إلى قتال أهل مكة ولم يقتل رؤساؤنا، وقيل: لو كنا على الحق ما قتلنا هاهنا. فأمر الله رسوله ﷺ أن يقول لهم:﴿ قُلْ لَوْ كُنْتُمْ فِي بُيُوتِكُمْ لَبَرَزَ الَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقَتْلُ إِلَى مَضَاجِعِهِمْ﴾ [آل عمران ١٥٤] .

ومن الأقوال البليغة التي تقال لهم إخبارهم بعدم قبول صدقاتهم، قال تعالى: ﴿قُلْ أَنْفِقُوا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا لَنْ يُتَقَبَّلَ مِنْكُمْ إِنَّكُمْ كُنْتُمْ قَوْمًا فَاسِقِينَ﴾ {التوبة ٥٣}.

يقول تعالى ذكره لنبيه محمد ﷺ: قل لهؤلاء المنافقين: أنفقوا على أي حال شئتم، من حال الطوع والكره، فإنكم إن تنفقوها لن يتقبل الله منكم نفقاتكم، وأنتم في شك من دينكم، وجهل منكم بنبوة نبيكم، وسوء معرفة منكم بثواب الله وعقابه إنكم

كنتم قوما فاسقين:أي خارجين عن الإيمان بربكم .(٥٨)

وللموعظة أثر كبير في إحياء القلوب الميتة، وردها إلى رشدها، لعلها تتقي ربها وترجع إليه، قال تعالى في معرض الحديث عن بني إسرائيل:﴿ وَإِذْ قَالَتْ أُمَّةٌ مِنْهُمْ لِمَ تَعِظُونَ قَوْمًا اللَّهُ مُهْلِكُهُمْ أَوْ مُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا قَالُوا مَعْذِرَةً إِلَى رَبِّكُمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾ [الأعراف ١٦٤]، ولذلك يجمع المربون على أهميتها في تربية النفوس وتهذيبها.

المبحث التاسع:

عدم طاعتهم، وترك أذاهم

قال تعالى: ﴿ وَلا تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ وَدَعْ أَذَاهُمْ وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلا﴾ [الأحزاب: ٤٨]. أمر الله بذلك عباده لأن المنافقين يأمرون غالبا بما فيه ضرر على الإسلام والمسلمين ولهذا نهينا عن طاعتهم، وأمّا ترك أذاهم فمعناه: الصبر على أذاهم وتحمّل ما يصدر منهم من أذى، وقيل: ترك مجازاتهم على الأذى الصادر منهم، وأن يكل أمرهم إلى الله تعالى فهو كافيه سبحانه فلن يضرّوه شيئاً. قال القرطبيّ: « أي دع أن تؤذيهم مجازاة على إذايتهم إياك فأمره تبارك وتعالى بترك معاقبتهم » ثم ذكر له معنى ثان: وهو أن يعرض عن أقوالهم وما يؤذونه، ولا ينشغل به (٥٩).

وهذا لا ينافي ما سبق من الأمر بالإغلاظ عليهم، فإنّ ذلك حسب ما تقتضيه المصلحة والسياسة الشرعية. وفي طاعة الله بترك طاعة المنافقين يرجع أذاهم وكيدهم إليهم فلا يتمادون فيه، وهذا عامل من عوامل انتهاء المنافقين عن نفاقهم.وفي صبر المؤمنين وإعراضهم بقلوبهم عن المنافقين وعدم اشتغالهم بتتبع أقوالهم أو الاهتمام بها توجيه لجهودهم فيما ينفعهم في دينهم ودنياهم، ومساهمة في عدم ترويج أقوال المنافقين، وفيه تحقير لهم كأنه يقال لهم: أقوالكم لا تستحق الاهتمام والذكر .

المبحث العاشر

الحذر منهم

قالَ تعالى: ﴿ يَحسَبُونَ كُلَّ صَيحَةٍ عَلَيهِمْ هُمُ العَدُوُّ فَاحذَرْهُمْ قَاتَلَهُمُ اللَّهُ أَنَّى يُؤفَكُونَ﴾ [المنافقون: ٤]. حصر الله العداوة فيهم، مع وجود غيرهم من الأعداء، و المراد إثبات الأولويّة والأحقيّة لهم في هذا الوصف. والتاريخ يذكر لنا أن أعداء الأمة الخارجيين لا قدرة لهم غالبا على المسلمين إلا عن طريق المنافقين، فأمرنا بالحذر من مكائدهم، وهذا يقتضي إبعادهم عن مواطن النفوذ في المجتمع الإسلامي، وعزلهم عن الوظائف الحسّاسة في الدولة الإسلامية.(٦٠)

قال ابن القيّم: «ومثل هذا اللفظ يقتضي الحصر أي لا عدو إلا هم، ولكن لم يرد ها هنا حصر العداوة فيهم، وأنّهم لا عدوّ للمسلمين سواهم، بل هذا من إثبات الأولوية والأحقية لهم في هذا الوصف، وأنّه لا يتوهم بانتسابهم إلى المسلمين ظاهراً وموالاتهم لهم ومخالطتهم إياهم أنّهم ليسوا بأعدائهم، بل هم أحقّ بالعداوة ممّن باينهم في الدار، ونصب لهم العداوة، وجاهرهم بها، فإنّ ضرر هؤلاء المخالطين لهم المعاشرين لهم وهم في الباطن على خلاف دينهم، أشدّ عليهم من ضرر من جاهرهم بالعداوة وألزم وأدوم، لأنّ الحرب مع أولئك ساعة أو أياماً ثم ينقضي ويعقبه النصر والظفر، وهؤلاء معهم في الديار والمنازل صباحاً ومساءً، يدلّون العدوّ على عوراتهم، ويتربّصون بهم الدوائر، ولا يمكنهم مناجزتهم، فهم أحقّ بالعداوة من المباين المجاهر، فلهذا قيل ﴿ هم العدو فاحذرهم ﴾ لا على معنى أنّه لا عدوّ لكم سواهم، بل على معنى أنّهم أحقّ بأن يكونوا لكم عدوّاً من الكفار المجاهرين »(٦١).

فإظهار الكفار كفرهم يدعو المسلمين للحذر منهم ولكنّ هؤلاء يدعون الإيمان ويحلفون عليه فكانوا أولى بالتحذير منهم لشدة عداوتهم، ولقوّة مداخلتهم مع المسلمين ممّا يمكّنهم من الاطّلاع على جميع شؤونهم (٦٢).

وقد امتثل النبيّ ﷺ هذا الأمر، فكان شديد الحذر من هذه الشرذمة ومن

ذلك أنّه كان إذا أراد غزوة ورّى بغيرها(٦٣) أي أظهر غير ما يريد، حفظاً لأسرار الدولة أن يطلّع عليها أهل النفاق وغيرهم، فتصل إلى العدوّ. (٦٤)

المبحث الحادي عشر

عدم الجلوس معهم

قال تعالى: ﴿ وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مَسْجِدًا ضِرَارًا وَكُفْرًا وَتَفْرِيقًا بَيْنَ الْمُؤْمِنِينَ وَإِرْصَادًا لِمَنْ حَارَبَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ مِنْ قَبْلُ وَلَيَحْلِفُنَّ إِنْ أَرَدْنَا إِلا الْحُسْنَى وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ .لا تَقُمْ فِيهِ أَبَدًا لَمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى التَّقْوَى مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَنْ تَقُومَ فِيهِ فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَنْ يَتَطَهَّرُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُطَّهِّرِينَ ﴾.[التوبة: ١٠٧، ١٠٨]

ومسجد الضرار بناه المنافقون في المدينة ليضاهي مسجده ﷺ وليكون مكانا يتجمّعون فيه ليحدثوا فرقة بين المؤمنين، ثمّ جاءوا لرسول الله ﷺ يطلبون منه أن يصلّي فيه ليكتسب الشرعية بذلك، فيقبل عليه العامّة من المؤمنين، فيشكّكوهم في دينهم، ويصرفوهم عن مسجد رسول الله ﷺ ولهذا جاء الأمر من الله بالنهي عن القيام فيه نهياً أبدياً، فما كان منه ﷺ إلا أن أمر بهدمه وحرقه، فخرجوا منه مولّين هاربين كالجرذان..(٦٥) وكان ممّن بنى هذا المسجد منافق يقال له جارية بن عامر(٦٦).

وقد بيّن الله الأغراض التي من أجلها أقيم هذا المسجد، وهي ضرارا: أي مضارّة للمؤمنين،وكفرا أي: بالله ورسوله، وطعناً فيهما،وتفريقا: فقد كان الجميع يصلّون في مسجد قباء، فبنوا هذا المسجد ليصلي فيه بعض المؤمنين، فتحدث فرقة الأجساد والقلوب بما سيبثونه من شكوك وشبهات، وَإِرْصَادًا لِمَنْ حَارَبَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ: وهو أن يكون هذا المسجد مكان رصد وانتظار وإعداد وإعانة لكلّ موتور وحاقد ومارق عن دين الله ومحارب له، ليكتمل لهم ما أرادوا من الكيد والمكر لدين الله تعالى(٦٧).

فالواجب على المؤمنين اليوم الاقتداء بنبيّهم وامتثال أمر ربّهم بترك القيام في مدارس المنافقين، ونواديهم، ما لم يكن غرضهم دعوتهم ونصحهم وكانوا

قادرين على ذلك، فقد كان النبيّ ﷺ يغشى مجالس الكفار ومنتدياتهم يدعوهم إلى الإسلام، أما مجالسهم التي يلتبس أمرها على المؤمنين مثل مسجد الضرار فلا يقوم بها فقد نهى الله نبيّه ﷺ عن حضور مجالس الكفّار التي يُستهزأ فيها بآيات الله قال الله سبحانه وتعالى: ﴿ وَقَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَابِ أَنْ إِذَا سَمِعْتُمْ آيَاتِ اللَّهِ يُكْفَرُ بِهَا وَيُسْتَهْزَأُ بِهَا فَلا تَقْعُدُوا مَعَهُمْ حَتَّى يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ إِنَّكُمْ إِذًا مِثْلُهُمْ إِنَّ اللَّهَ جَامِعُ الْمُنَافِقِينَ وَالْكَافِرِينَ فِي جَهَنَّمَ جَمِيعًا﴾ [النساء: ١٤٠]. وبه يعلم النهي عن مشاهدة كل باطل عند خوض أهله فيه.

وفي هذا تأثير في عقائد المنافقين فهو داخل فيما سبق ذكره من نبذهم وتحقيرهم وتنفير الناس عنهم.

المبحث الثاني عشر
عدم الرضا عنهم

قال الله تعالى في وصف المنافقين: ﴿ يَحْلِفُونَ لَكُمْ لِتَرْضَوْا عَنْهُمْ فَإِنْ تَرْضَوْا عَنْهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ لا يَرْضَى عَنِ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ﴾ [التوبة: ٩٦]، وقال عز وجل: ﴿ يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَكُمْ لِيُرْضُوكُمْ وَاللَّهُ وَرَسُولُهُ أَحَقُّ أَنْ يُرْضُوهُ إِنْ كَانُوا مُؤْمِنِينَ﴾ [التوبة: ٦٢]، وقال في موضع آخر:﴿ وَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ إِنَّهُمْ لَمِنْكُمْ وَمَا هُمْ مِنْكُمْ وَلَكِنَّهُمْ قَوْمٌ يَفْرَقُونَ. لَوْ يَجِدُونَ مَلْجَأً أَوْ مَغَارَاتٍ أَوْ مُدَّخَلا لَوَلَّوْا إِلَيْهِ وَهُمْ يَجْمَحُونَ ﴾ [التوبة: ٥٦، ٥٧].

فنهى الله من اغتر بمعاذيرهم عن الرضا عنهم، لأن ما لا يرضي الله لا يكون للمسلمين أن يرضوا به و الرضا عمّن لا يرضى عنه الله تعالى ممّا لا يكاد يصدر عن مؤمن. وفي هذا تأثير على عقائدهم وانتهائهم عن نفاقهم، لأن الذي يبحثون عنه بنفاقهم هو رضى المؤمنين عنهم فإن علموا أن رضى المؤمنين ميؤوس منه وإن حلفوا بالله، تركوا نفاقهم ورجعوا عنه .

المبحث الثالث عشر

التحذير من السماع لهم

قال تعالى عن المنافقين: ﴿ لَوْ خَرَجُوا فِيكُمْ مَا زَادُوكُمْ إِلا خَبَالا وَلأَوْضَعُوا خِلالَكُمْ يَبْغُونَكُمُ الْفِتْنَةَ وَفِيكُمْ سَمَّاعُونَ لَهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ ﴾ [التوبة: ٤٧]. أي: فيكم أيها المؤمنون من يستجيب لهم، ويتأثّر بما يبثّونه من الشكوك والشبهات. وهذا على أحد القولين في الآية، وقيل المعنى: وفيكم من يسمع الأخبار ثم ينقلها إليهم بمنزلة الجاسوس(٦٨).

والمعنى الأول أرجح لأن سياق الآيات في المنافقين، قال ابن تيمية: « وإنّما عدّاه باللام، لأنّه متضمّن معنى القبول والطاعة، كما قال الله على لسان عبده: (سمع الله لمن حمده) أي: استجاب لمن حمده. وكذلك سماعون لهم أي: مطيعون لهم »(٦٩). وهذا خبر في معنى النهي، أي: لا تسمعوا لهم، ولا تقبلوا ما يبثّونه من شكوك وشبهات .

المبحث الرابع عشر

النهي عن الدفاع عنهم

قال تعالى:﴿ وَلا تُجَادِلْ عَنِ الَّذِينَ يَخْتَانُونَ أَنْفُسَهُمْ إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ مَنْ كَانَ خَوَّانًا أَثِيمًا﴾ [النساء١٠٧]، وقال تعالى: ﴿ هَا أَنْتُمْ هَؤُلاءِ جَادَلْتُمْ عَنْهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فَمَنْ يُجَادِلُ اللَّهَ عَنْهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَمْ مَنْ يَكُونُ عَلَيْهِمْ وَكِيلا ﴾ [النساء: ١٠٩] .

ففي الآية الأولى نهي صريح عن المجادلة عن أهل النفاق، والدفاع عنهم لما جُبلوا عليه من الكذب والخيانة والتلون والخداع والتمويه، لا سيما في مواجهة المؤمنين الصادقين، وقد تحمل القرابة أو العصبية القبلية بعض الناس على المجادلة عن المنافقين، وذلك قد ينفعهم في الدنيا، لكنّه لن ينفعهم يوم القيامة، قال القرطبي: « قال العلماء: لا ينبغي إذا ظهر للمسلمين نفاقُ قومٍ أن يجادل فريق منهم فريقاً عنهم ليحموهم ويدفعوا عنهم، فإنّ هذا قد وقع على عهد النبيّ ﷺ وفيهم نزل قوله تعالى: ﴿وَلا تَكُنْ لِلْخَائِنِينَ خَصِيمًا﴾ [النساء: ١٠٥] وقوله:﴿ وَلا تُجَادِلْ عَنِ الَّذِينَ

يَخْتَانُونَ أَنْفُسَهُمْ ﴾ [النساء: ١٠٧]، والخطاب للنبي ﷺ والمراد منه الذين كانوا يفعلونه من المسلمين »(٧٠).

وما أكثر اليوم من يجادل عن أهل النفاق إمّا بحسن نيّة، وإمّا بسوء نيّة .

ذكر الرازي في تفسيره أنّ في الآية تهديداً شديداً، لأنّ النبيّ ﷺ لمّا مال طبعه قليلاً إلى جانب بعض المنافقين الذين نزلت فيهم الآيات، وكان في علم الله أنّهم كانوا فاسقين، عاتب رسوله على ذلك القدر من إعانة المذنب، فكيف حال من يعلم من الظالم كونه ظالماً ثمّ يعينه على ذلك الظلم، بل يحمله عليه ويرغبه فيه أشدّ الترغيب! (٧١)

الخاتمة

الحمد لله الذي أعان على إتمام هذا البحث، وهذه أهمّ نتائجه:

١. إنّ المنافقين أخطر عدوّ في المجتمع المسلم لكن ذلك لا يمنع من محاولة إصلاحهم، فالمؤمن لا ييأس من رحمة ربه.

٢. أنّ مسئولية التأثير على المنافقين تقع بالرجة الأولى على ولاة الأمر والعلماء والقادة وأهل الحل والعقد ثم على عامة المؤمنين .

٣. الموعظة البليغة لها أثر عظيم في إصلاح المفسدين من المنافقين وغيرهم، ولذلك أمر الله رسوله ﷺ بوعظ المنافقين، وذلك من سعة رحمة الله بعباده.

٤. أنّ المنافق يصبغ حديثه بصبغة الدين تلبيساً على العامّة، فمجاهدته إنّما تكون بفضحه، ومجادلته بالحجّة الواضحة، حتى ينكشف أمره.

٥. أنّ الإغلاظ على المنافقين لأجل أنهم قوم في غاية اللؤم والجبن والخسّة، واللئيم إن أحسنت إليه ولاطفته ازداد لؤماً وشرّاً، وإن أغلظت عليه وزجرته، كُفيت شرّه، ولم يجرؤ على إظهار شيء مما يبطنه من الشرّ والفساد .

٦. الحذر من تولية المنافقين مناصب حسّاسة في الدولة الإسلامية، عسكرية كانت أو مدنية، وأهمية منعهم من الخروج للقتال مع المؤمنين في حال وجوب القتال، لما

٧. في ذلك من آثر على هزيمة المسلمين، ولإظهار دناءة منزلتهم وسوء حالهم، ولا خزي أعظم من أن يكون إنسان قد رفضه الشرع كالجمل الأجرب.

هذه أهمّ النتائج التي توصّلت إليها، والله وليّ التوفيق، وصلّى الله وسلّم على نبيّنا محمّد وعلى آله وصحبه وسلم.

هوامش البحث:

(١) ٦٩٥٨/١ (نفق).
(٢) ٤٥٠٨/٨ (نفق).
(٣) اليربوع دويبة فوق الجُرَذ، والعامة تقول: (جَرْبُوعٌ). المصباح المنير ٢١٧/١، (ربع).
(٤) ينظر: النهاية لابن الأثير ٩٨/٥، والقاموس المحيط للفيروز آبادي ١١٩٦ (نفق).
(٥) رواه البخاري في كتاب الإيمان، باب علامة المنافق، (٨٩/١) رقم(٣٣) عن عبد الله بن عمرو، ومسلم عنه أيضا في الإيمان بَاب بَيَانِ خِصَالِ الْمُنَافِقِ (٧٨/١)، رقم (٩١) بلفظ « أربع من كنّ فيه.. » ولم يذكرا الخمس مجتمعة، وفي صحيح مسلم وغيره رواية أخرى بلفظ: « آية المنافق ثلاث إذا حدث كذب وإذا وعد أخلف وإذا اؤتمن خان » المذكورة في البحث، رواه البخاري الإيمان كِتَاب الْإِيمَانِ بَاب عَلَامَةِ الْمُنَافِقِ برقم (٣٢) عن أبي هريرة، ومسلم في كتاب الإيمان، بَاب بَيَانِ خِصَالِ الْمُنَافِقِ (٧٨/١) رقم (٩٢).
(٦) أخرجه البخاري في كتاب الأدب، باب لَا يَجاهد إلا بإِذْنِ الْأَبَوَيْنِ، عن عبد الله بن عمرو، برقم ٥٥٤٤.

(٧) ٥/٣.
(٨) ينظر: زاد المسير: ٤٧٠/٣.
(٩) ينظر: تفسير القرآن العظيم: ٣٧١/٢.
(١٠) التحرير والتنوير ٣٧٢/٢٨.
(١١) ينظر:المرجع السابق ١٠٨/٢٢.
(١٢) المرجع السابق ٣٧٢/٢٨.
(١٣) المربد: المكان الذي تحبس فيه الإبل والغنم. ينظر: لسان العرب: ١٧٠/٣ (ربد).
(١٤) الجمّة: الشعر الكثير، وقيل:ما سقط من الشعر على المنكبين. ينظر: لسان العرب: ١٠٤/١٢(جمم).
(١٥) صفة النفاق للفريابي ٢٩، والسيرة النبوية لابن هشام ٥٢٩/١.
(١٦) السيرة النبوية لابن هشام ١٦٠/٤.
(١٧) أصل الوَشَل في اللغة: الماء القليل الذي يخرج من بين الصخر. ينظر: لسان العرب:

١١/٧٢٥ (وشل).

(١٨) البداية والنهاية: ١٨/٥.

(١٩) أخرجه البخاري في كتاب التفسير، باب قوله تعالى:(سواء عليهم أستغفرت لهم)(المنافقون ٦)عن ابن عمر، برقم: ٤٣٩٢، ومسلم في كتاب البر والصلة، باب نصر الأخ ظالما أو مظلوما، ص٦٥٩، برقم: ٢٥٨٤.

(٢٠) ينظر: البداية والنهاية: ١٥٧/٤، ١٥٨.

(٢١) نقله عنه الأحوذي في شرح سنن الترمذي ٨ /٣٧٨.

(٢٢) ينظر:تفسير القرآن العظيم: ٣٧٨/٢.

(٢٣) أخرجه البخاري في كتاب التفسير، باب قوله تعالى:(اسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لَا تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ) (التوبة ٨٠) رقم ٤٦٧٠، ومسلم في كتاب فضائل الصحابة، باب من فضائل عمر/٦١٦ رقم ٢٤٠٠

(٢٤) مفاتح الغيب: ١٢١/١٦.

(٢٥) ٢٩٩/٥، برقم: ٢٢٦٠٨، وصحح إسناده شعيب الأرناؤوط في تخريجه على المسند.

(٢٦) ذكره ابن كثير في تفسيره ١٩٥/٤.

(٢٧) أخرجه البخاري في كتاب المناقب، باب مناقب عمار وحذيفة، برقم: ٣٤٨٣،

(٢٨) تحفة الأحوذي ٣٩٨/٨.

(٢٩) ينظر: التحرير والتنوير: ١٨٩١/١.

(٣٠) المغني: ٣٦٦/١٠.

(٣١) البحر المحيط لأبي حيان ٨٢/٥.

(٣٢) ينظر: جامع البيان: ١٩٤/٤.

(٣٣) رواه ابن أبي حاتم في تفسيره: ١٠٢٣/٣.

(٣٤) ينظر في ظلال القرآن لسيد قطب ٢٠٨/٢.

(٣٥) ينظر: الجامع لأحكام القرآن: ٢٩٤/٥.

(٣٦) تيسير الكريم الرحمن ١٩١/١.

(٣٧) ينظر: لسان العرب: ٥٢/١٣، (بطن).

(٣٨) ينظر: جامع البيان: ٤٠٦/٣، ٤٠٧، وتفسير القرآن العظيم: ٣٩٨/١.

(٣٩) ينظر: معالم التنزيل للبغوي: ٩٥/١.

(٤٠) جامع البيان: ٤٠٦/٣. وينظر: المفردات في غريب القرآن: ص٦٢.

(٤١) ينظر: معالم التنزيل للبغوي: ٩٥/١، والجامع لأحكام القرآن للقرطبي: ١٧٤/٤، وتفسير القرآن العظيم: ٣٩٨/٢.

(٤٢) ينظر:تفسير الطبري ١٥٦/٧، وتفسير القرطبي ١٧٤/٤.

(٤٣) الحَقَبُ: الحِزامُ الذي يَلِي خاصرة البَعير. ينظر:لسان العرب ٣٢٤/١ (حقب) .

(٤٤) جامع البيان: ١٤/٣٣٤. وأخرجه ابن أبي حاتم في تفسيره: ٧/٣١٣ .

(٤٥) ينظر:التعامل مع المنافقين، د.محمد عبد العزيز المسند .ص٣١.

(٤٦) ٤/١٦٠.

(٤٧) تفسير القرآن العظيم ٧/٣٢١.

(٤٨) رواه البخاري برقم ٦٨٧٢ .

(٤٩) رواه مالك في الموطأ ٥٩٥، والبيهقي في السنن عن عبد الله بن عدي في كِتَّابُ الْجُمُعَةِ، بَابُ مَا جَاءَ فِي الرَّعْدِ برقم١٥٤٧٨.

(٥٠) فتح الباري١٢/٢٧٣.

(٥١) ينظر: جامع البيان: ٨/٥١٥، ومعالم التنزيل للبغوي: ٢/٢٤٤.

(٥٢) ينظر: جامع البيان: ٨/٥١٥.

(٥٣) ينظر: معالم التنزيل: ٢/٢٤٤.

(٥٤) ينظر: الوجيز للواحدي: ١/٢٧٢.

(٥٥) الكشّاف: ١/٢٧٦، ٢٧٧.

(٥٦) ينظر: الجامع لأحكام القرآن للقرطبي: ٥/٢٦٥.

(٥٧) جامع البيان للطبري ١٤/٢٩٣.

(٥٨) جامع البيان ١٤/٢٩٣ .

(٥٩) الجامع لأحكام القرآن: ١٤/١٧٩. وينظر: جامع البيان: ١٠/٣٠٧، ومعالم التنزيل للبغوي:١/٣٦١.

(٦٠) التعامل مع المنافقين. د. محمد عبد العزيز المسند /٣٨ .

(٦١) طريق الهجرتين وباب السعادتين: ص ٣٧٤.

(٦٢) ينظر:أضواء البيان: ٨/١٩٨.

(٦٣) الحديث رواه مسلم عن كعب بن مالك في كتاب التوبة، باب توبة كعب، ص٧٠٣ برقم: ٢٧٦٩ .

(٦٤) ينظر:التعامل مع المنافقين، د.محمد عبد العزيز المسند .ص٣٩.

(٦٥) ينظر: جامع البيان: ٦/٤٦٩، ولباب النقول في أسباب النزول للسيوطي: ص ١/١١٥.

(٦٦) ينظر: البداية والنهاية لابن كثير: ٣/٢٣٩.

(٦٧) ينظر: معالم التنزيل: ٤/٩٤، ومفاتح الغيب: ١٦/١٥٤.

(٦٨) جامع البيان١٤/٢٨١.

(٦٩) مجموع الفتاوى: ٢٥/١٢٩.

(٧٠) الجامع لأحكام القرآن: ٥/٣٥٧.

(٧١) ينظر: مفاتح الغيب ١١/٢٨.

قائمة المصادر والمراجع:

- القرآن الكريم.

١. أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن لمحمّد الأمين بن محمد المختار ابن عبد القادر الجكني الشنقيطي، دار الفكر، بيروت، الطبعة: ١٤١٥ هـ .
٢. البداية والنهاية إسماعيل بن عمر بن كثير القرشي، بيروت، مكتبة المعارف .
٣. تاج العروس من جواهر القاموس: لأبي الفيض السيد المرتضى الزبيدي، دار الفكر، بيروت، ١٤١٤هـ، دراسة وتحقيق علي شيري.
٤. التحرير والتنوير لمحمد الطاهر ابن عاشور، دار سحنون،تونس،١٩٩٧.
٥. تحفة الأحوذي، محمد بن عبد الرحمن المباركفوري، دار الكتب العلمية، بيروت .
٦. التعامل مع المنافقين،د.محمد عبد العزيز المسند. مجلة معهد الإمام الشاطبي للدراسات القرآنية، العدد الثامن، ذو الحجة ١٤٣٠.
٧. تفسير ابن أبي حاتم، تحقيق أسعد محمد الطيب، مكتبة نزار الباز، الرياض، ط ١، ١٤١٧.
٨. تفسير القرآن العظيم للحافظ ابن كثير، دار المعرفة، بيروت، ١٤٠٣هـ
٩. تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنّان، لعبد الرحمن بن ناصر السعديّ، الرياض، الرئاسة العامّة لإدارات البحوث العلميّة، تحقيق محمّد زهري النجّار.
١٠. جامع البيان في تأويل القرآن محمّد بن جرير الطبري، الطبعة الأولى، دار المعارف.
١١. الجامع لأحكام القرآن محمّد بن أحمد القرطبيّ، ط ٢؛ بيروت، دار إحياء التراث العربيّ.
١٢. زاد المسير في علم التفسير لأبي الفرج عبد الرحمن بن عليّ بن الجوزيّ، بيروت، المكتب الإسلامي، ط١، ١٤٢٣هـ.
١٣. السيرة النبوية، عبد الملك بن هشام ت٢١٨هـ، تحقيق مصطفى السقا وآخرون، دار إحياء التراث العربي، بيروت.
١٤. صحيح البخاري لأبي عبد الله محمّد بن إسماعيل البخاري، دمشق، دار القلم: ط١، ١٤٠١هـ. اعتنى به د. مصطفى ديب البغا.
١٥. صحيح مسلم مسلم بن الحجّاج القشيري، الرياض، مكتبة الرشد،١٤٢٢هـ.
١٦. صفة النفاق وذم المنافقين،لأبي بكر جعفر الفريابي، تحقيق أبو عبد الرحمن الأثري، دار الصحابة للتراث، مصر ط١، ١٤٠٨.

١٧. طريق الهجرتين وباب السعادتين، لابن قيّم الجوزية، القاهرة، المطبعة السلفية ومكتبتها، ط٣، ١٤٠٠هـ. عُني بمراجعته وإخراجه محبّ الدين الخطيب.

١٨. فتح الباري شرح صحيح البخاري، للحافظ أحمد بن حجر العسقلاني، دار المعرفة، بيروت.

١٩. في ظلال القرآن لسيد قطب، دار الشروق، بيروت، طبعة تاسعة، ١٤٠٠هـ.

٢٠. الكشّاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل، لأبي القاسم جار الله محمود بن عمر الزمخشري، بيروت، دار المعرفة.

٢١. لباب النقول في أسباب النزول لأبي الفضل عبد الرحمن بن أبي بكر ابن محمد السيوطي، دار إحياء العلوم، بيروت.

٢٢. لسان العرب لأبي الفضل محمّد بن مكرّم بن عليّ ابن منظور، القاهرة، دار المعارف. تحقيق عبد الله الكبير، ومحمّد أحمد حسب الله، وهاشم الشاذلي.

٢٣. مجموع فتاوى شيخ الإسلام أحمد بن تيمية، جمع وترتيب عبد الرحمن ابن قاسم، مكتبة ابن تيمية، مصر.

٢٤. المصباح المنير أحمد بن محمد بن علي المقري الفيومي، المكتبة العلمية، بيروت.

٢٥. معالم التنزيل لأبي محمّد الحسين بن مسعود البغوي، الطبعة الأولى، الرياض، دار طيبة، ١٤٠٩هـ. تحقيق محمّد النمر، وعثمان جمعة، وسليمان الحرش.

٢٦. المغني في فقه الإمام أحمد بن حنبل الشيباني، لأبي محمد عبد الله ابن أحمد بن قدامة المقدسي، بيروت، دار الفكر، ط ١، ١٤٠٥هـ.

٢٧. مفاتيح الغيب لفخر الدين محمد بن عمر التميمي الرازي الشافعي، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤٢١.

٢٨. المفردات في غريب القرآن لأبي القاسم الحسين بن محمد الراغب الأصفهاني، بيروت، دار المعرفة، ط١، ١٤١٨هـ، تحقيق محمد خليل عيتاني.

٢٩. المنهاج شرح صحيح مسلم بن الحجاج لأبي زكريا يحيى بن شرف النووي، دار إحياء التراث العربي، بيروت، الطبعة الثانية، ١٣٩٢هـ.

٣٠. موطأ الإمام مالك بن أنس، دار إحياء العلوم العربية، ١٤١٤.

٣١. النهاية في غريب الحديث والأثر، مبارك بن محمد بن الأثير الجزري، تحقيق محمد الطناحي وطاهر الزاوي، نشر أنصار السنة المحمدية، باكستان.

٣٢. الوجيز في تفسير الكتاب العزيز، لأبي الحسن علي بن أحمد الواحدي، تحقيق صفوان عدنان، دار القلم، دمشق، ط١٤١٥، ١.